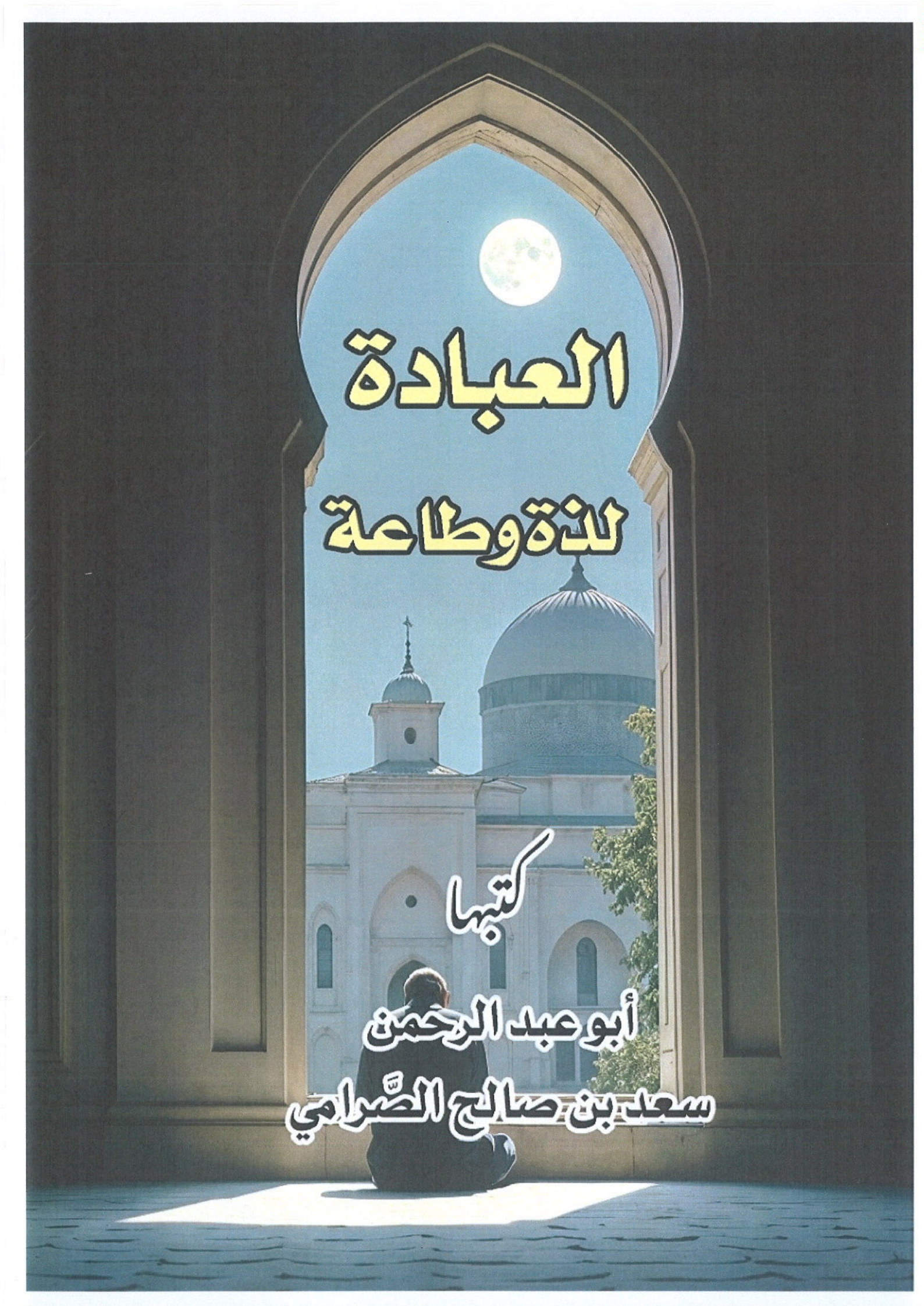




العبادة

لذة و طاعة

كتبها

أبو عبد الرحمن

سعد بن صالح الصَّرامِي

مقدمة

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ لقد تكفل الله عز وجل لمن التزم منهج الله أن يمنحه الحياة السعيدة الصافية من الأكدار وأن يؤمنه من الخوف والجزع في الدنيا وأن يعيش عيشة هنيئة مفعمة بالسكينة والطمأنينة والراحة النفسية، إن هذه الآية الكريمة تشير إلى مقومات الحصول على السعادة في الدنيا والآخرة، إنه الالتزام بهذا الدين وتطبيقه في واقع الحياة، الالتزام بهذا الدين عقيدة في الضمير وسلوكا في واقع الحياة ومجاهدة النفس وتطويعها للاستقامة على منهج الله عز وجل لقد ظن قوم أن السعادة في الغنى ورخاء العيش ووفرة النعيم ورفاهية الحياة، لكن البلاد التي ارتفع فيها مستوى المعيشة وتيسرت لابنائها مطالب الحياة المادية من مأكّل ومشرب وملبس ومسكن ومركب مع كماليات لا تزال تشكو من تعاسة الحياة وتحس بالضيق والانقباض وتبحث عن



طريق آخر للسعادة، وأكبر شاهد على ذلك واقع الحياة في أوروبا رغم التقدم العلمي الذي تعيشه، وإن من مظاهر التعاسة التي تعيشها أوروبا تفشي الأنتحار وتفكك الأسر وتمرد الأبناء على الآباء وانتشار المخدرات والمسكرات واللجوء إليها للتخلص من هموم الدنيا، إن أوروبا لم تصل إلى هذه الحال إلا لما طرحت الدين جانباً واهتمت بتحقيق مطالب الجسد على حساب الروح فأظلم قلبها وضلت الطريق فضيعت الهدف وذلك نتيجة طبيعية لكل من حاد عن جادة الصواب وتنكر لهذا الدين وما يعيشه كثير من المسلمين اليوم من قلق وهم واكتئاب وكدر وأمراض نفسية وعصبية وأرق في النوم ما هو إلا نتيجة طبيعية للبعد عن الدين والتعلق بغير الله من هوى وشهوة عاجلة. يقول ابن القيم - رحمه الله - في كتابه الوابل الصيب: «الغموم والهموم والاحزان والضيق عقوبات عاجلة ونار دنيوية وجهنم حاضرة والاقبال على الله والانابة إليه والرضى به وامتلاء القلب من محبته واللهمج بذكره والفرح والسرور بمعرفته ثواب



عاجل وجنة وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه ألبته» .
وإن أعظم منحة يمنحها الله لعبده منحة التلذذ
بالعبادة وأعني بها ما يجده المسلم من راحة النفس
وسعادة القلب وانسراح الصدر وسعة البال أثناء
العبادة وعقب الانتهاء منها، وهذه اللذة تتفاوت من
شخص إلى شخص حسب قوة الإيمان وضعفه،
وهذه اللذة تحصل بحصول أسبابها وتزول بزوال
أسبابها، ويجدر بالمسلم أن يسعى جاهداً إلى تحصيلها
لينعم في هذه الحياة بالحياة السعيدة. لقد كان رسول
الله ﷺ يقول لبلال - رضي الله عنه - أرحنا بالصلاة
يابلال لما يجده فيها من اللذة والسعادة القلبية،
وإطالته ﷺ لصلاة الليل دليل على ما يجده في الصلاة
من الأُنس والسرور بمناجاة ربه وها هو معاذ بن جبل
- رضي الله عنه - يبكي عند موته ويقول: إنما أبكي
على ظمأ الهواجر وقيام ليل الشتاء ومزاحمة العلماء
بالركب عند حلق الذكر ويقول ابن تيمية - رحمه
الله - : «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة
الآخرة». ويقول أحد السلف: مساكن أهل الدنيا



خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها. قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله ومعرفته وذكره. وقال آخر: إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً. وقال آخر: إنه لتمر بي أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي طيب. يقول محمد أحمد الراشد في كتابه المنطلق: «لئن توهم الدنيوي جناته في الدنيا والنساء والقصر المنيف فإن جنة المؤمن في محرابه، ولقد منَّ الله على الناس بكثير من المباح الحلال يفند الرهبانية ولكن المؤمن له لذة كلما توجه إلى ربه بصفاء روح تتضاءل بجانبها لذة المباح، فيهجر الكثير من المباح حذراً من كدرٍ يعكر الصفاء الذي هو فيه، جرب ذلك المؤمنون قديماً زمن العيش البسيط وجربه المؤمنون اليوم زمن المدنية المعقدة، بل إن الصلاة في يوم المدنية لأظهر في إضفائها السرور، فبينما يطيل التعقيد على الإنسان حياته الحاضرة فيسأم ويمل ويضجر تختصرها الصلاة إلى بضع ساعات فحسب فيعيش في اطمئنان وراحة بال».



أسباب تحصيلها

١- مجاهدة النفس على طاعة الله حتى يمكن إدراكها وقد تنفّر النفس في بداية طريق المجاهدة ولكن إذا شمر عن ساعد الجد وكانت عنده تلك الإرادة والعزيمة القوية فسينالها بإذن الله ، فالأمر يتطلب مصابرة وقوة تحمل . يقول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ . ويقول عليه الصلاة والسلام : «المجاهد من جاهد نفسه في الله» . رواه الترمذي عن فضالة بن عبيد . ويقول أحد السلف : «مازلت أسوق نفسي إلى الله وهي تبكي حتى سقتها وهي تضحك» .

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى
فما انقادت الآمال إلا لصابر

يقول ابن رجب «واعلم أن نفسك بمنزلة دابتك إن عرفت منك الجد جدت وإن عرفت منك الكسل طمعت فيك وطلبت منك حظوظها وشهواتها» .



٢- ترك فضول الطعام والشراب والكلام والنظر.
 فينبغي للمسلم أن يقتصر في طعامه وشرابه على ما
 يقيم صلبه ويعينه على أداء عبادته وعمله فلا يسرف
 في الأكل لقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَم خذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ
 كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
 الْمُسْرِفِينَ﴾. ويقول عليه الصلاة والسلام: «كُلْ
 واشرب والبس وتصدق في غير سرفٍ ولا مخيلة».
 ويقول أحد السلف: «راحة القلب في قلة الآثام
 وراحة البطن في قلة الطعام وراحة اللسان في قلة
 الكلام». لهذا نرى الذي يثقل بطنه بالطعام يتأقل
 عن الصلاة ولا يقوم إليها إلا وكأنه يقاد إليها
 بالسلاسل وإذا دخل في الصلاة فإنه ينتظر اللحظة
 التي يقول فيها الإمام السلام عليكم ورحمة الله .
 يقول أبو سليمان الداراني: إن النفس إذا جاعت
 وعطشت صفا القلب ورق وإذا شبعَت عمى
 القلب:

ولقد عجت من المشمر ماله
 نسي المشمر زينة الإقلال



يقول ابن القيم - رحمه الله - «خلق ابن آدم بدنه من الأرض وروحه من ملكوت السماء وقرن بينهما فإذا جاع بدنه وأسهره وأقامه في العبادة وجدت روحه خفة وراحة وتاقت إلى الموضع الذي خلقت منه واشتاقت إلى عالمها العلوي ، وإذا أشبعه ونعمه ونومّه واشتغل بخدمته وراحته أدخل البدن إلى الموضع الذي خلق منه وبالجحمة : فكلما خف البدن لطفت الروح وخفت وطلبت عالمها العلوي وكلما ثقل وأدخل إلى الشهوات والراحة ثقلت الروح وهبطت من عالمها وصارت أرضية سفلية». ولا يفهم من كلامي السابق أن يقلل الإنسان من الطعام على وجهٍ يضر بدنه فيفوت كثيراً من المصالح الدينية والدنيوية فلنحذر ذلك ولنعلم أن ذلك مدخل من مداخل التصوف وكما أن عليه ترك فضول الطعام والشراب فعليه أيضاً ترك فضول الكلام فعليه أن يشغل لسانه بذكر الله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله عز وجل ، ولا بأس بالكلام المباح بشرط ألا يصل إلى حد الإفراط فقد يجر إلى قسوة القلب . يقول عليه الصلاة



والسلام: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي». رواه الترمذي عن ابن عمر - رضي الله عنهما - وأما المراد بفضول النظر، النظر إلى ما يحرم أو يكره النظر إليه كالجرائد والمجلات التي تحمل في طياتها الصورة المأججة للشهوة المثيرة للفتنة، الداعية إلى الرذيلة. فكل جارحة من الجوارح لها عبودية خاصة بها فعليه أن يشغل كل جارحة بما ينقصها من عبودية، وإن خرج بكل جارحة من هذه الجوارح عن عبوديتها الخاصة بها فقد وقع في المحذور. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾. ويقول عليه الصلاة والسلام: «يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة وكل تكبيرة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة ويجزىء من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى». رواه مسلم عن أبي ذر. يقول شاه الكرمانى: «من عَمَّرَ باطنه بالمراقبة



وظاهره باتباع السنة وغض بصره لم تخطيء له
فراصة».

٣- أن يدرك المسلم أن سعادته مرتبطة بإدراكه
لهذه اللذة، فالإنسان مهما توفرت له سبل الراحة
والمعيشة فلن يجد هذه اللذة إلا إذا وثق صلته بالله .
فالمال والجاه والحسب والنسب والأولاد لا تغني عن
الإيمان شيئاً ولا نسبة بين نعيم الدنيا الزائل وبين نعيم
الإيمان، وإذا أردت أن تعرف مصداق هذه الكلام
فقارن بين حياة أهل الثراء وحياة أهل الإيمان . يقول
الحسن البصري : «إنهم وإن طقطقت بهم البغال
وهملجت بهم البراذين فإن ذل المعصية لا يفارقهم أبى
الله إلا أن يذل من عصاه» .

إن هذا الإنسان لا يمكن أن يهنأ في هذه الحياة
ويستطيب العيش بها إلا إذا وثق صلته بالله عز وجل
وعلق قلبه به . يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله - :
«في القلب شعث لا يلمه إلا الاقبال على الله ، وفيه
وحشة لا يزيلها إلا الانس به في خلوته وفيه حزن لا



يذهب به إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه .

٤- إطابة المطعم وفي الحديث : «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يقول : يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك ، سئل الإمام أحمد بن حنبل - رضي الله عنه - بم تلين القلوب قال : بأكل الحلال ولا يبلغ المؤمن درجة الورع والتقوى حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس ويقول أحد السلف تركنا ١٠ / ٩ الحلال مخافة الوقوع في الحرام قال وهب بن الورد : لو قمت مقام هذه السارية لم ينفعك شيء حتى تنظر ما يدخل في بطنك حلال أو حرام .

٥- البعد عن الذنوب صغيرها وكبيرها . يقول سفيان الثوري : حرمت قيام الليل بسبب ذنب



أذنبته ، ولما جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته وتوقد ذكائه وكمال فهمه فقال : إني أرى الله قد القى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية . وقال الشافعي :

شكوت إلى وكيع سوء حظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال اعلم بأن العلم نور وفضل لا يؤتاه عاصي
وقال ابن المعتز :

خَلَّ الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقى
واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

ويقول النبي ﷺ : «إياكم ومحقرات الذنوب فإنها مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن وادٍ فجاء ذابعدود وجاء ذا بعود حتى حملوا ما انضجوا به خبزهم ، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه» . رواه أحمد والطبراني والبيهقي عن سهل بن سعد .



مظاهر حرمانها

من مظاهر حرمان لذة العبادة ثِقْلُ الصلاة على بعض الناس فلا ياتون الصلاة إلا وهم كسالى كأنها يساقون إلى الموت وهم ينظرون وأصبحت الصلاة كالحمل الثقيل على رؤسهم لسان حالهم يقول: أرحنا منها يا إمام بدليل نقرهم الصلاة والسرعة في أدائها وترى الواحد منهم يخرج من المسجد بمجرد انتهاء الإمام من السلام، ولو أن هذا الصنف من الناس وجد لذة العبادة وأحس بطعمها لبادر إلى الصلاة من حين النداء لها وأطال المكث في المسجد بعد الفريضة لأداء الرواتب والاشتغال بالأوراد ولكن من تعلق قلبه بالدنيا يصعب عليه ذلك.

يقول ابن القيم - رحمه الله - في وصف حال المؤمن عند الصلاة: «فإذا حضر وقت الظهر بادر إلى التطهر والسعي إلى الصف الأول من المسجد فأدى فريضته كما أمر مكملًا لها بشرائطها وأركانها وسننها وحقائقها الباطنة من الخشوع والمراقبة والحضور بين يدي الله



فينصرف من الصلاة وقد أثّرت في قلبه وبدنه وجوارحه وسائر احواله أثّراً تبدوا على وجهه ولسانه وجوارحه ويجد ثمرتها في قلبه من الانابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور وقلة التكالب والحرص على الدنيا وعاجلها، قد نهته صلاته عن الفحشاء والمنكر وحُبّبت إليه لقاء الله ونفّرتة عن كل قاطع يقطعه عن الله فهو مهموم مغموم كأنه في سجن حتى تحضر الصلاة فإذا حضرت الصلاة قام إلى نعيمه وسروره وقرة عينه وحياة قلبه فهو لا تطيب له الحياة إلا بالصلاة وهذا دأبه في كل فريضة».

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين.



